التنشئة الاجتماعية الوالدية وجنوح الأحداث.

لزرق سجيدة، طالبة دكتوراه في علم النفس العيادي،

جامعة السانية- وهران.

تمهيد:

يولد الطفل وسط أسرة تكفل تربيته و تنشئته اجتماعيا مسايِّرة بذلك مراحل نموه وتطوره. حيث ينتقل الطفل من تبعيته تدريجيا إلى الاستقلالية، وذلك من خلال المساعدة التي يجلبها له الوالدين. يتمكن الطفل من إدراك تمايز أناه عن أنا أمه من خلال تفاعله معها و من خلال عمليه الرضاعة التي تقوم بها، ثم يتعرف تدريجيا على العالم الخارجي بتدخل الأب بطريقة إيجابية في العلاقة الثنائية (أم- طفل)، تتعمم بعدها على باقي الأفراد المحيطين به.

يُساهم دخول الأب في العلاقة الثنائية (أم- طفل) و تمثيل كليهما (الأب والأم) وظيفته الحقيقية، _خلال المرحلة الأوديبية_ في تكوين الطفل لهوّيته الجنسية، يكتشف خلالها اختلافه عن الجنس الآخر، و يُمارس عادات و قيم في جماعات من نفس جنسه. ينتقل بعدها _أثناء مرحلة المراهقة_ إلى البحث عن هوّيته الشخصية، فيشرع في تكوينها من خلال تمجيد نموذج يرى فيه التشابه أو التماثل، كما يستدخل معاييرا وقيما من البيئة الاجتماعية التي ينتمي إليها، ويُخطِّط مشروع حياته، يندمج على إثره في المجتمع الذي يعيش فيه.

تعترض المراهق صراعات و ارتهانات في مسار تكوين هوّيته الشخصية يجدر به مقاومتها والتصّدي لها، و ما هو إلاّ استجابة لسيرورة التميز التي تلي سيرورة الامتثال اللتين تُميزان سيرورة التشخص. أمّا إذا لم يتمكن المراهق من مقاومة تلك الصراعات وبالارتهانات يُكبح تشخصه ويتولد لديه الإحساس بالعجز وبعدم القدرة على تحقيق ذاته من خلال ضياع ماضيه، عدم قدرته على التصرّف بشكل شخصي في الحاضر و استحالة تنظيم وتنبؤه للمستقبل، و ما هي إلاّ مميزات لشخصية مرتهنة.

يأخذ جنوح الأحداث شكلا من أشكال هذه الشخصيات المرتهنة، لما تظهر من مميزات في شخصية المراهق الجانح من خلال مروره إلى الفعل لعدم قدرته على مواجهة القلق الداخلي والخارجي بصفة سوية، أي بمخالفته لقوانين المجتمع الذي ينتمي إليه.

يُرجع عديد الباحثين جذور ذلك الصراع إلى نوع التنشئة الاجتماعية التي تلقاها الجانح أثناء تكوينه لهوّيته الشخصية، كما يعتبره فينيكوت (Winnicott) كرمز للأمل، و هو طلب موجه للمحيط الذي كان عاجزا عن القيام بواجبه. كما يعتبر النسقيون الجنوح كعرض لأسرة مضطربة، و فهمه يعود إلى فهم النسق الأسري لذلك الجانح و التفاعلات داخل الأسرة.

الوظائف الوالدية و تكوين الهوّية الشخصية:

تُعتبر الأسرة المحطة الأولى التي يمر بها الفرد، و التي تُساهم في تنشئته حتى النضج، من التبعية التامة و حتى يحقّق الاستقلالية. يبدأ من اللاتمايز بين أناه وأنا أمه إلى بداية التمايز وتُساهم عملية الرضاعة و التي تتمثل في أول تجربة للإشباع التي يشعر بها الطفل، في مساعدة الطفل على إدراكه أنّه متمايز عن أمه و ذلك من خلال تتابع تجارب الإشباع والإحباط الذين يَنْجَرَيْنِ عنها، وبالتالي تكون أصل توظيف الموضوع و كل سيرورات التفكير. ومع حلول الشهر الثامن يتولد له إحساس الخوف من فقدان الموضوع و الذي يطلق عليه سبيتز (Spitz) "قلق الانفصال" من الأم التي تُمثّل موضوع الحب والتعلق، لذلك يُؤكّد المحللين النفسانيين على الخطورة القصوى التي تنجر عن تفريق الأم عن طفلها في هذه المرحلة من العمر[1].

ينتقل الطفل من اللاتمايز إلى البحث عن الاستقلالية، بعد إدراكه أنّ "أناه" مستقل ومتمايز عن "أنا" أمه، يقول اركسون (Erikson) أنّه يُحاول أن يُحقق استقلاليته ويُبادر بالقيام بأعمال و نشاطات بمفرده. كما يدخل الطفل في طور الاتصال مع 2- 3 سنوات وتظهر "لا" التي يحاول من خلالها إثبات شخصيته وفرض ذاته بمعارضته، كما يتحكم في ضبط عضلات الإخراج ويكتسب نظافته و ذلك على ما اتفقت عليه نظرية الجنس لفرويد (Freud) ونظرية اركسون (Erikson) في النمو النفسي الاجتماعي. ثم يُدرِك الفروق التشريحية والاختلاف الجنسي بين الذكر و الأنثى (أي وجود أو غياب العضو الذكري، والذي يرد الطفل الاختلاف إلى بتر العضو الذكري عند البنت والذي يُطلق عليه بعقدة الخصاء (complexe de castration)[2] عند حوالي 3 سنوات في ما يسميه فرويد (Freud) بالمرحلة القضيبية حيث ينتقل استثمار الليبدو من المرحلة السابقة المرحلة الشرجية إليها. تزيد فضولية الطفل فيما يخص الجنس و العلاقة بين الأب و الأم مع دخوله المرحلة الأوديبية، ويظهر الصراع الجنسي لأول مرة في ثلاثية تناسلية متكونة من (أب- طفل- أم)، فتنمو غيرة الطفل من الأب الذي يكسب الأم و التي تُمثّل له أول موضوع حب، مما يجعل الطفل يكره أباه و في نفس الوقت يُحبه لأنّه قوي و جذاب، و هذه الغيرة تُثير عدوانه وخوفه من أن يتلقى عدوانا مقابلا من طرف الأب و أن ينتقم منه و يُخصيه، فينتهي الطفل بالتماهي مع الأب وبتكوين نسق رمزي يرمي إلى تسليم قانون أساسي في العلاقات الاجتماعية و هو تحريم زواج المحارم، وكذا تكوين أنا أعلى متين.

يُعتبر الأب مجرد استعارة (métaphore)، يقول لكان (Lacan): "الأب ليس موضوعا حقيقيا، الأب استعارة، والتي هي مدلول يأتي مكان مدلول آخر، فالأب مدلول بديل لمدلول آخر. و هنا يكون الدافع والنشاط الأساسي للأب من خلال تدخله في عقدة الأويب"[3]. فيجب عليه أن يُكسِّر العلاقة الثنائية اللإلتحامية (أم- طفل) من خلال اهتمامه بطفله والعناية به، الاختلاء به بعيدا عن لأم، وببناء علاقة حميمية معه فيضع الطفل الثقة فيه ويعتبره كموضوع للتعلق. كما يجب أن يُمثِّل المثال الأعلى بالنسبة لابنه من خلال سلوكاته ووظيفته الرمزية التي يقوم بها، كما يجب أن يُحقِّق النموذج للتماهي. فينبغي أن يكون أبا بوظيفته الرمزية، فيكون محبوبا و مُهابا في نفس الوقت من أجل تدخله في عقدة أوديب، فربط لكان (Lacan) بين مفهوم الأب وعقدة الأوديب وذلك من خلال الارتكاز على أعمال فرويد (Freud)، فيقول: "لا يوجد مسألة أوديب إذا لم يكن هناك أب؛ على عكس الحديث عن الأوديب، يجب إدخال وظيفة الأب بشكل أساسي"[4]. كما أنّ الحرمان من الأب الرمزي يعني لا منطقية وظيفته في سير الجدلية الأوديبية، و الذي لا يرتبط بوجود الأب الحقيقي في بُعده الواقعي. ذلك أنّ النظام الأبوي (instance paternelle) اللازم لعقدة أوديب يكون حصريا رمزيا بما أنّه استعارة (métaphore) ومن خلال تدخلاته.

التنشئة الاجتماعية الوالدية و جنوح الأحداث:

تُعد الهوّية الجانحة سيرورة تطورية لتكوّن الشخص، لها خصائص تُميزُها عن غيرها من الهوّيات. فلا يولد الشخص جانحا أو مجرما بل ينمو و يتطور وفق سيرورة، يتأثر بفعل التنشئة الاجتماعية التي يتلقاها و بفعل صور التماهيات التي يستدخِلُها.

يُعتبَر "جنوح الأحداث مجموع المخالفات التي يرتكبها المراهق في حق قوانين المجتمع، و هي تعبّر عن الصراع الذي يتعارض به هذا المراهق مع المجتمع الذي ينتمي إليه".[5]

ظهر هذا المفهوم (جنوح الأحداث) في بادئ الأمر للإشارة إلى سلوكات الأحداث المهمشين الذين ينتمون إلى الطبقة الشعبية؛[6] ثم جمعت تحت عبارة جنوح مختلف أنواع السلوكات المحكوم عليها من قبل الراشدين على أنّها لا تلاءم الأحداث (كالعلاقات الجنسية، استعمال الكحول والمخدرات، عصيان الوالدين و السلطة) إلى حد الجنح التي يعرّفها القانون الإجرامي بتدقيق (كالاغتيال و القتل، الاقتحام، السرقة باستعمال السلاح، سرقة السيارات، السرقة باستعمال الكسر و التحطيم) مرورا بالسلوكات الممنوعة من طرف النظام والقانون الصادرة عن مرسوم خاص بالأحداث (كسياقة السيارات، التواجد في الخمارات، و اضطرابات سلوكية خطيرة أخرى).[7]

يعتبر لاقاش Lagache "أنّه يوجد قطيعة في بنية العلاقات بين الفرد والوسط الذي ينتمي إليه، فالجنوح عبارة عن نفاية للميولات العدوانية التي تتواجد بشكل عادي عند كل فرد ابتداء من الطفولة"[8]، و تبنّى هاير Heuyer

عام 1969 نفس التعريف، و يُضيف أنّ الجنوح يُغطّي مجموع تصرفات مختلفة و متعددة، كما قسّمه إلى مفهوم نظامي، تفهمي، سلوكي. غير أنّ مايوكس Mailloux ولوماي Lemay لا يعتبرون أنّ الجنوح ظاهرة ذاتية، و لكن تظاهرة سطحية لاضطراب متواجد في تكوين الشخصية، يتوجب الكشف عنه.(9)

يؤكد الباحثين النفسانيين و الاجتماعيين على أنّ الجنوح دليل لفشل أساسي في سيرورة التنشئة الاجتماعية، فشل يجد أصوله في وسط أسري أو اجتماعي مَرَضي؛ فهو غالبا ما يكون نتاج لعلاقات اجتماعية فاسدة أو مشوّهة لفاعل، استطاع تطويرها مع والديه في زمن الطفولة وحتى المراهقة. كما يوضح منيشان (Minuchin) و النسقيون أنّ "الطفل المضطرب عرض لعائلة مضطربة الوظيفة، وإذا أصبح نظام الأسرة عاديا يختفي العرض"(10)

و تُصرِّح بذلك أحد الحالات الجانحة المتواجدة في المركز المتخصص في إعادة التربية (ذكور) بحاسي دحو لولاية سيدي بلعباس أنّها لم تعش في وسط عادي: "...لم أنشئ عاديا، كان أبي يضغط و يشدّد عليا كثيرا، ويجلدني بكثرة لذلك أصبحت هكذا. الجلد والتشدد ليسا أسلوبين مناسبين للتربية، و حتى كثرة التساهل أسلوب غير مناسب، فيجب على الآباء أن يشددوا قليلا وأن يحاوروا أبناءهم، يعلمونهم أساليب الفعل والتصرف، عليك ابني بهذه، و تجنب ذلك.. وليس التسلط و الأمر باستخدام الشدة والجلد."

تُضيف حالة أخرى: "دمّرتني مشاكل بيتنا، هناك من ولد في أسرة هنيئة وسعيدة، يدرس، يمارس الرياضة... وأنا أعيش هكذا، في بيت يملؤه الصراخ، نشأت وسط المشاكل والصراخ، تصرخ أمي، و تصرخ أختي... الصراخ والصراخ في كل وقت، أبي من جهته غير مبالي لشيء، لا يدري ماذا يحصل في البيت، و أختي الصغيرة هي الأخرى تبكي و تصرخ... فأصرخ أيضا من دون وعي مني في تلك اللحظات ليسكت الكل. أجواء بيتنا تقلقني كثيرا، أقلق وأقلق، لا أستطيع تحمل صراخهم الدائم ومشاكلهم اليومية، لذلك أصبحت منحرفا هكذا".

فتُعدُ الممارسات التربوية أهم الميزات الأسرية الحازمة ارتباطا بالجنوح وهو ما تطرق لهما ا. وَ س. قلييباك (Les Glueck) في أبحاثهما الطولانية والعرضية. كما يُصِّر ايرشي (Hirschi) على أنّ المراقبة الوالدية مكوِّن أساسي للصلة التي تقود الطفل لأن يصبح عضوا من المجتمع وبالتالي يمتنع عن الجنوح. بالإضافة إلى التوضيح الذي قدمه ليوبار (Leober) عام 1990 على ضرورة وجود السلطة الوالدية للتطور الشخصي والاجتماعي للطفل. كما لاحظ فرانقتون (Farrington) هو الآخر في تحاليله لتنبؤات الجنوح أنّ كل الأبحاث تلتقي في الربط بين الدور الأساسي لنقص الإشراف والحراسة من طرف الأولياء، عدم الانتظام في الانضباط أو القسوة في تطبيقه.

تقول أحد الحالات: "وجدت الحرية في بيتنا، لا يسأل أحد عني، أين أذهب ومن أصاحب. أدخل كل ليلة في ساعة متأخرة، مرات تتحير أمي عليا، تصرخ في وجه أبي وتأمره بالبحث عني، يوهمها أبي بالذهاب إلى البحث عني خوفا منها ومن

صراخها، فيخرج من البيت و يتوجه نحو المسجد، يستريح هناك مدة من الزمن –و أنا أراقبه من بعيد- ثم يعود إليها و يخبرها أنّه لم يجدني. منذ و أن عرفت أبي و هو على هذا الحال، لا يضربنا إن أخطأنا لا يسأل عنا و لا يهتم بنا. و مرات تخرج أمي لوحدها للبحث عني، و لما تجدني أصرّخ عليها و آمرها بعدم الخروج للبحث عني مرة أخرى لأني ساهر مع أصحابي... فالكل يخاف مني في البيت".

و تقول حالة أخرى: "أبي جد متشدد، معقد، متعصب، إذا قلت له إنّها سوداء يقول أنّها بيضاء، و إذا قلت له حقا إنّها بيضاء، فيرد عليا بالضد و يقول أنّها سوداء، هو هكذا، معقد هكذا. لما طردني من البيت استنجدت بجدتي (أمه) كي يرجعني إلى البيت و لم يكترث لها و لم يتركني أرجع، و من ذلك الوقت فقدت أملي فيه، و اقتنعت أنّه لن يرجع في قراره "

و على هذا الأساس حاولت عديد المراجع في علم الإجرام فهم كيفية تأثير الممارسات التربوية الوالدية في ظهور السلوك الجانح لدى أبناءهم المراهقين؛ وعليه ظهر مصطلح البرانتينغ "Parenting" على يد بورتواس (Pourtois) عام 1984 والذي يُناسب "الممارسات التربوية الضرورية لنمو الطفل، فهو ممارسة الوظائف النفس- اجتماعية والبيداغوجية التي تشمل كل الأدوار التربوية لشخص لديه أو لا تجمعه صله القرابة، يستطيع توليه أثناء الحياة".[11] يأخذ هذا البرانتينغ "Parenting" مكانا في النسق الأسري، فبالنسبة لجريس (Gerris) يُخلق من جماعة متميزة من بيئته والتي تُدعِّم الالتزام المتبادل لأعضائه، الواحد من أجل الآخر. وتترجم مشاركة الأعضاء في تبادلات ايجابية، عاطفية، أو كل شيء بالعكس، بالعدوانية. فهو قريب من النظريات النسقية، فيظهر في شكل شبكة من العلاقات والتفاعلات بين الوالدين، وبين الوالدين والأبناء. النسق المصغر يتركب من أربعة عناصر: الوالدين كأشخاص، الوالدين كشركاء في علاقة، الطفل أو المراهق كشخص، الوالدين و الأبناء كشركاء في علاقة. حيث أن كل واحد منهم لديه سمات شخصية خاصة به، مميزات فكرية، سلوكات وتطور. إلاّ أنّ لهذا النسق المصغر تأثير في الأسلوب التربوي غير مباشر بينما الممارسات التربوية لديها تأثير مباشر على تطور الطفل.[12]

و هو ما يظهر في نسق أحد عائلات المراهقين الجانحين التي كانت متواجدة بنفس المركز، حيث تظهر عدوانية، تصلب وتسلط الأب في أقوال الأم و الحالة رغم أخذ كل منها على حدة، بالإضافة إلى نقص المرونة، الانفتاح، الأخذ والعطاء بين أفراد العائلة الواحدة، فتقول الأم: "متصلب الرأي، قاسي، متعصب كثيرا، حاولت مناقشته في أمر طرد ابنه من البيت لكنّه رفض فتح النقاش معي، وهدّدني حتى بالطلاق، فاخترت الصمت على الطلاق لفائدة أولادي"، تَضيف: "حاول إخوتي التحدث إليه فانطلق في الصراخ و طردهم من البيت و أمرهم بعدم التدخل في شؤونه... و هدّد كل من ينطق باسم ابنه ضربه والتعدي عليهن فأصبح الكل يخاف منه، و يخافون حتى عليا و لم يفتحوا الموضوع معه من جديد "، فرفض رأي الآخر يحول بين فتح آفاق النقاش و التحاور و ما هو إلاّ نسق مضطرب نتج عنه مراهق جانح.

تكلمت بومراند (Baumrind) عام 1968 عن الدور الذي تأخذه السلطة في تربية الطفل. كما أصّرت على ضرورة تغيير السلطة الوالدية تماشيا مع السن، فهيمنة الوالدين تكون كبيرة في الطفولة، لكن يأخذ تعبيرها شكل آخر ابتداء من المراهقة، لأنّ المراهق يحتاج من والديه ليقولا له شيئا معينا ويستعدان لسماع رأيه في موضوع ما، غير أنّ المراقبة الوالدية تبقى أساسية. وهو ما صرّحت به أحد الحالات المذكورة سابقا " ...في تربية الأبناء يجب على الأب أن يشدّد قليلا على ابنه و يتحاور معه، فيقول له عليك يا ابني بالتصرف على هذا النحو و اجتناب هذا الفعل، وهكذا، فلا يرتكز إلاّ الشدة و الجلد".

سلّمت بأن للأسلوب التربوي عواقب تُؤثّر على تطور القدرات الاجتماعية والمعرفية للطفل. فاختلاف الأساليب الوالدية يُنبِّئ باختلاف في الأطفال، على مستوى القيم، السلوكات والمعايير. ومع الوقت، و بتأثير التنشئة الاجتماعية و اكتساب هذه القدرات المتغيرة ينتقل الطفل تدريجيا إلى الاستقلالية. و أبرزت عام 1991، بالإضافة إلى دراسات ستانبرغ (Steinberg) وآخرون عام 1994 حول عواقب تأثير الأساليب التربوية على تطور المراهق، فوجدوا أنّ الأسلوب الديمقراطي هو الأكثر إفادة والأسلوب غير الملتزم ينتج سلوكات أكثر تهميشا.[13]

أكّد ايرشي (Hirschi) عام 1969 من جهته، على أهمية وضرورة المراقبة الخارجية (مثل: الخوف من الدركي) و ذلك للمحافظة على الامتثال الاجتماعي، كما جاءت به فرضيته المعقدة: المراقبة الخارجية المدربة من طرف الوالدين تُولّد مراقبة داخلية و تعلقا بالمؤسسات المتعاقدة التي تُكوِّن الرابط الاجتماعي.[14]

اتّسعت اهتمامات الباحثين بالتنشئة الاجتماعية وتأثيرها على تكوين الشخصية الجانحة عند الطفل والمراهق، و ربط بعضهم الجنوح بالجانب الأخلاقي. توصّل سيبس (Cibbs) عام 1987 إلى أنّ اختراق القانون راجع إلى أفكارهم المتمركزة حول الذات والبراغماتية. و توصّل أربيثنوت (Arbuthnot) وآخرون عام 1987 إلى أنّ للجانحين ميول لظهور المنطق الأخلاقي في الأطوار 1 و 2، فيما أنّ لغير الجانحين ميل لظهور المنطق الأخلاقي في الأطوار 3 و 4، حيث أنّ الطور 3 يُمثِّل استدخال البنيات الأخلاقية للأسرة، و الطور 4 يُمثِّل استدخال البنيات الأخلاقية للمجتمع. أمّا بالنسبة لدينيات (Dignette) عام 1989، فاعتبر أنّ الجنوح ناتج عن صدع في التنشئة الاجتماعية و هذا لغياب الروابط بين الفرد و الآخرين الذين يُمثِّلون قيم المجتمع. واستنتج كولبرغ (Kohlberg) من خلال دراسته المقارنة بين الجانحين وغيرهم من غير الجانحين أنّ الجانحين يتميزون بحكم أخلاقي متدني مقارنة مع غير الجانحين و هذا راجع للتأخر في تطور البنيات المعرفية.[15]

أمّا عن التحليليين فيعتبرون أنّ لاحترام المعايير علاقة مباشرة مع تكوين الأنا الأعلى، إذ يتشكل هذا الأخير من تمثُّل المتطلبات و النواهي الوالدية. فتكوين الأنا الأعلى بالنسبة لفرويد (Freud) يقوم على التخلي عن إشباع الرغبات

الأوديبية التي يُطالبها التحريم، ويُحوِّل الطفل توظيفه على الأهل، إلى تماه معهم، مُستدخلا التحريم من خلال ذلك، ثم من المجتمع و الثقافة (التربية، الدين والأخلاق)؛ و هذا من خلال ما بيّنه في كتاباته "دروس إضافية في المحاضرات التمهيدية للتحليل النفسي" عام 1932: "إن إرساء الأنا الأعلى يمكن اعتباره كحالة ناجحة من التماهي بالسلطة الوالدية".[16]

إلاّ أنّ البعض منهم ركّزوا على أهمية التماهي (l'identification) في تكوين الشخصية، لأنّها العملية النفسية التي يتمثَّل الشخص بواسطتها أحد مظاهر، أو خصائص أو صفات شخص آخر، و يتحوَّل كليا أو جزئيا، تبعا لنموذجه. حيث تتكون الشخصية وتتمايز من خلال سلسلة من التماهيات.[17]

يستطيع التماهي أن يصبح سلبيا، إذا ما كوّن المراهق صورة سلبية لذاته، عند فشل الأسرة في تحقيق صورة ايجابية للطفل في الأطوار الأولى من العمر، لأنّ جزءا كبيرا من صورة الذات تبنى من خلال الصورة التي يُكوِّنُها الوالدين للطفل. كما أنّ صورة الذات هي وظيفة لتجارب التعلق و المراقبة، حيث إذا كان الوسط الأسري دافئ، ترتفع قيمة الذات بسهولة. و تُثْرى هذه الصورة من خلال الأحكام التي يُقدِّمها الفرد لقيمه وأفعاله. أمّا عن التماهي السلبي فيتكون من تراكمات الفشل، حيث أنّ هذه التراكمات تُنمِّي إحساسا وإدراكا منخفضين و متدنيين لذاته، وهذا حسب الوصف الذي قدّمه سيلوس (Selosse) عام 1980. فيظهر الإفلاس في الاندماج الاجتماعي في شكل أفعال جانحة، معارضة، عدوانية و احتجاجات حاقدة. يتغذى هذا التماهي السلبي من خلال مقابلة شباب آخرين يعانون نفس الوضع الاجتماعي و نفس اليأس الاجتماعي، فالتماهي السلبي نوع من "الموت الاجتماعي" و الذي يفتح طريق كل الجنح.

يظهر هذا التماهي السلبي في تطور إحدى الحالات الجانحة التي كانت تُقلِّد سلوكات الأخ الذي عانى نفس المعاناة مع الأب، يقول: "أخي الكبير يخاف منه كل ريفنا، لا يستطيع أن يناقشه أحد، دخل السجن عدة مرات، مسجل لدى الأمن أنّه مجرم، في المرة الأخيرة سرق سيارة باعها و هرب بمالها في قارب إلى اسبانيا، كان يتاجر في الكيف أيضا... لما كنت أنطق باسمه، كان الكل يهابني. كنت أبلغ 10 سنوات قبل أن يذهب إلى اسبانيا، كنت أقلده في كثير من الأمور، لأنّه كان "رجلا"، كان يوجهني في كثير من الأمور، كان يرشدني إلى طرائق الفعل و التصرف، كان ينصحني بالمقاتلة لاسترجاع حقي و إذا لم أتمكن من ذلك أستنجد به، فكان يسترجع لي حقي دائما..."، فكان يرى أنّ أخاه مثاليا، يحبه و يحميه عكس ما كان أباه.

و بالنسبة لـ (Reckless) و آخرون عام 1956، تصطحب الصورة الجيّدة للذات هوّية ايجابية و تستطيع أن تلعب دورا كعازل عن الجنوح و صورة الذات السيئة مرتبطة بهوية سلبية تستطيع أن تعمل كقيادة للجنوح. أمّا عن تاب (Tap) عام 1988، اعتبر أنّ الهوّية نتاج التنشئة الاجتماعية و بالخصوص التماهي للمشروع، فمجرد أن يقذف

الشاب في المستقبل يُصبح راشدا طاقويا، قادرا على تبني أدوار الراشدين. و بهذا الفعل يُصبح الشاب عضوا بصورة كلية في المجتمع؛ أمّا في الحالة المعكوسة، فيرتخي الرابط الاجتماعي و الجنوح ويُصبح محتملا.[18]

فاهتمام الباحثين بالتماهي، الهوية و صورة الذات سبقتهم اهتمامات بالتفاعل الأولي للطفل مع والديه، التعلق و علاقتهم بالسلوك الجانح. من خلال تأسيس فينيكوت (Winnicott) لنظريته "الميل إلى معادية المجتمع" عام 1967، فالجنوح مرتبط بالحرمان من الرّعايات التي يجلبها له المحيط الذي يعيش فيه، نظرا للضياع الشرس للرعايات التي استلمها و التي سُحبت منه حالا. فهذا الميل إلى معادية المجتمع ، هذا الجنوح ما هو إلاّ "رمز للأمل"، فهو عبارة عن طلب موجّه للمحيط الذي كان عاجزا عن القيام بواجبه.[19]

أمّا عن بوولبي (Bowlby) فكان اهتمامه موجّها نحو العلاقة الأولية للرضيع وأمه، فأسس نظرية التعلق، و التي يبرز فيها ضرورة العلاقة الأولية التي تتطور بين الرضيع والمعطي الأساسي للرعاية. هذا الرابط العاطفي يسمى التعلق، و هو يُمثِّل قاعدة التطور الاجتماعي، العاطفي وحتى المعرفي اللاحق. إضافة إلى أنّ علاقات التعلق تستمر في التأثير على الأفكار، الأحاسيس، المقاصد والعلاقات الحميمية طوال الحياة. و أبرزت أبحاث أخرى أنّ التعلق الآمن عامل حماية يجر عنه نتائج تطورية أكثر تفاؤلية، فيما أنّ الأطفال الذين يعيشون تعلقا غير آمن هم أكثر عرضة لتلقي مشاكل اجتماعية، تكيفية، وحتى مرضية.[20]

أبرز سبيتز (Spitz) عام 1963 من خلال نظريته في التطور للعلاقة الموضوعاتية (objectale relation) كيف تنبثق الأم من العالم اللامبالاتي (indifférencié) للمولود الجديد، للمبالي و يستطيع في الأخير أن يُصبِح موضوع الحب، و يسمح للرضيع التوصل إلى العلاقة بالموضوع. حيث ميّز بين عدة أطوار: اللاموضوعاتية من 0 إلى 2- 3 أشهر، قبل موضوعاتية من 3 إلى 7- 8 أشهر، الموضوعاتية نحو 8 أشهر، و طور الاتصال نحو 2- 3 سنوات. و أكّد أنّه إذا حدثت صعوبة كبيرة في طور من الأطوار فإنهّا تشوش التطور المستقبلي للطفل وقدرته في إقامة علاقات مع الآخر، و حتى بشكل خطير في كثير من المرات.[21]

في الأخير، و من خلال هذه الأبحاث يبرز دور التنشئة الاجتماعية في توجيه سلوك الفرد نحو الجنوح، فتُعتبر الشخصية الجانحة نتيجة و ليس معطية، فلا يولد الشخص مجرما بل ينمو ويتطوّر و فق سيرورة منذ مراحله الأولى من العمر تُدعى بالشخصنة، تُعبّر هذه السيرورة عن كل فرد يتكوّن، يكبر، ينمو ويتحقق في نفس الوقت الذي ينشئ فيه اجتماعيا و يمتثل.

التربية الأسرية مسؤولية يتوجب فيها تقاسم الأدوار بين الأب و الأم أو البديل المكلف بهذه العملية. تترتب على كل والد وظيفة معينة ترتبط بجنسه ومكانته الاجتماعية. كما أنّ الوظيفة هذه التي يقوم بها تُعرِّفه عند الطفل، فلا

يستطيع الوالد أن يكون أبا إلاّ إذا أكمل وظيفته الرمزية، من خلال تدّخله في عقدة أوديب، نسبة إلى مدرسة التحليل النفسي. فيتوجّب عليه ترك ابنه يُحبّه ويخافه في نفس الوقت، يكون ذلك من خلال بناء علاقات إيجابية معه في سن مبكرة، تدّخله في العلاقة الثنائية (أم- طفل) و محاولة كسرها و بناء علاقة ثلاثية (أب- أم- طفل)، من خلال محاولة كسب حب الطفل، و بناء علاقة تعلق معه، فيأخذه الأب في حضنه، و يجعله بعيدا عن أنظار الأم بضعا من الوقت، يُداعبه، يُلامسه، يهتم ويعتني به. لكن دون أن ينسى مسؤوليته في تمثيل السلطة بالبيت، بسَنِّه للقوانين والمعايير، والقيام على المحافظة عليها. و هذا ما يترك الطفل يحبه ويخاف منه في نفس و هذا ما يُمكّنه من أن يكون نموذجا للتماهي بالنسبة لطفله لأنّ التماهي عملية نفسية يتمثّل الشخص بواسطتها أحد مظاهر، أو خصائص أو صفات شخص آخر. ويتحوّل، كليا أو جزئيا، تبعا لنموذجه، تحكمها ثلاثة شروط:

شرط عاطفي: لا يتحقق التماهي إلا إذا أدرك الطفل وأحس بمشاعر الدفء، الود و ألفة وانجذابا لنموذج.

شرط التشابه: لا يحدث التماهي إلا إذا أدرك الطفل أنه يوجد عناصر مشتركة مع نموذجه. بالنسبة للتحليل النفسي يظهر هذا الشرط مع مفهوم تماهي للثلث (الشخص الثالث).

شرط القوة: للتماهي صلة مع إدراك الطفل لنموذجه كقوي، قادر أو مرموق.

و هذا ما يجعل الطفل يتماهى مع أبيه و يُكوّن أناه الأعلى بالتالي، لأنّ للتماهي وظيفتين متناقضتين في تكوين الهوّية:

- وظيفة دفاعية: تسمح للفاعل بتجاوز القلق الناتج من الصراعات بين رغبة الشخص و متطلبات العالم المحيط به، بين الإحساس بالعجز و الحاجة إلى تكييف الطاقات، بين رغبة المحافظة على الهوّية و إجراء التغيرات.

مضمون القلق و طبيعة التماهي يتبعون الأطوار التَكَوُنية. يترافق مع كل طور تطوري صراعات و كيفيات تماهية خاصة. بالتماهي مع الآخر، يبحث الطفل أيضا على تجنب فقد الحب، تجاوز قلق العدوان، إزاحة الإحساس بالعجز تجاه ذاته و تجاه الآخر.

- وظيفة بناءة: بمقدار أنّها تسمح بالمرة بامتلاك مميزات الآخر و وحدة الأنا.

يتحقّق التماهي مع الأب بلعبه دور المنافس من جهة في كسب علاقة الحب مع الأم، بالإضافة إلى دور الأب القمعي في المرحلة الأوديبية. هذه المرحلة التي تُعدّ خطوة مهمة على المستوى النزوي، حيث يُميِّز هذا الطور الانتقال من الغلمة الذاتية و من النرجسية بالعلاقات الموضوعاتية: تتنشئ النزوات اجتماعيا ليس فقط في أنماط إشباعهم و لكن في موضوعهم الذي لا يُحمَل على مختلف أجزاء الجسم الخاصة بالطفل لكن على الأشخاص، وعلى الوالدين بالخصوص. فهي التي تُميز قمة الجنسية الطفلية. يأخذ الطفل في هذا الطور الوعي بالذات على أنّه كائن جنسي وبهذا الحدث لا يقع في

علاقة ثنائية (أم- طفل) ولكن في علاقة ثلاثية. يتوقف حلها على تعزيز لمواضيع الحب هذه من خلال تعزيز الميولات الليبيدية و في استدخالها، و يتم التخلص من الأوديب من خلال المرور بالتماهي للأب. حيث يُحرَك هذا التماهي من طرف إحساسين متناقضين:

الأول يأخذ طابع المنافسة، حيث يتمنى الولد أن يقفد أباه الذي يراه كمنافس من أجل أن يحل محله أمام موضوع الحب، الأم. يكون هنا تماهي للمنافس بالرغبة في موت الذي يعرقل علاقة الحب المحرمة. يسمح هذا التماهي بالتنافس على موضوع الحب و الذي يكون فيه الخصم حضور الأب.

الثاني يأخذ طابعا دفاعيا ضد الخوف من الأب القمعي والمُخصي، و الذي يُمثِّل قلق الخصاء المُحرض من طرف الأب القمعي الذي يكون نتيجته تجاوز عقدة أوديب عن طريق التخلي عن الأم كموضوع حب و بالتماهي للأب.

من خلال تأدية الأب لوظيفته البناءة، تظهر وظيفة الأم كأساسية أيضا، لكنّها مختلفة في طبيعتها عن وظيفة الأب، كونها تُعدّ كتجربة أولا من خلال عملية الحمل و الوضع التي تقوم بها، فهي تُعطيه حق الحياة والتواجد في هذا العالم. كما تُشبع حاجته الفسيولوجية، من خلال عملية الرضاعة التي تقوم بها. كما أنّها تُساعده على تكوين شخصيته مبكرا من خلال مساعدته على تمايز أناه عن أناها. فيكون الجنين في التحام جسمي و نفسي في بطن أمه، ثم ينفصل الرضيع عن أمه بالولادة، لكن يستمر الالتحام النفسي مطوّلا و يظن الطفل أنّ أناه مدمج بأنا أمه. وبواسطة الإحباطات التي تنجر عن عملية الرضاعة التي تقوم بها الأم عندما لا تُلبي حاجته في التغذية بالحال، يُدرِك أنّه مختلف عن أمه، كما أنّه تابع لها، يتمالكه قلق الانفصال بالشهر الثامن ويخاف من فقدانه لموضوع حبه وهي الأم. و لكن لا يبقى كثيرا على ذلك الحال بل يُحاول البحث عن الاستقلالية، و تتبع هذه الحالة عملية الفطام التي تقوم بها الأم و التي تُعدّ مصيرية بالنسبة له. فيتوجب على الأم أن تقوم بها بحرص، فتكون متدرجة و غير فجائية، مستبعدة السلوكات العنيفة التي تُكسّر علاقة الحب.

فيتوجّب على الأم أن تكون موضوع حب و تعلق و في نفس الوقت تدفع الطفل نحو الأب و تُساعده على الانفصال عنها، كي يستطيع أن يبني علاقات إيجابية مع محيطه بمبادراته الخاصّة، وأن يستقل بهوّيته الشخصية.

تتغير الوظائف الوالدية و تتنوع بتقدم الطفل في العمر. يبقى الحب الوالدي أساسيا لأنّه يُكمِّل حاجة نفسية. و تحتل الحاجة الاجتماعية مكانة مهمة كذلك بخروج الطفل إلى المجتمع الذي ينتمي إليه، و تكوين علاقات اجتماعية مع مختلف أعضاءه. لأنّ الحياة الاجتماعية تفرض على الفرد الانتماء إلى مجتمع معين والذي يُمثِّل نسقا من الواجبات الجماعية التي يستطيع الاغتنام منها، و لكن يتوجب عليه أيضا تولّيها. فالمجتمع تقاسم للأدوار، و هذا الدور الاجتماعي و العادات الثقافية للجماعة تُمثِّل قولبة أساسية للشخصية.

كذلك الاتفاق على نفس الأسلوب التربوي، و كذا تثبيت هدف واحد ينبغي بلوغه في النهاية، بالإضافة إلى توفير جو يلاءم نمو وتطور الطفل. فارتكاب الوالدين لخطأ أو سلسلة من الأخطاء في إطار هذه السيرورة، إمّا لجهلهم للمهمة التربوية، إهمال أو إفراط من طرفهم، يُعرقِل النمو و التطور السليم للطفل. تزداد شدته في مرحلة المراهقة مع تكوين الهوّية الشخصية، فيظهر ذلك في التهميش، الارتهان و صعوبة الاندماج في المجتمع الذي ينتمي إليه.

المراجع والاحالات :

1 - POUSSIN (G), 2004, La fonction parentale, 3è éd, Dunod, Paris, pp. 124-127.

[2] - لابلانش (ج) وَ بونتاليس (ج.ب)، 1985، معجم مصطلحات التحليل النفسي، ترجمة:حجازي (م)، ط1، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر ، ص 361.

[3] - DOR (J), 1998, Le père et sa fonction en psychanalyse, Erès, Paris, p43.

4 - Id, p42.

[5] - SILLAMY (N), 1983, Dictionnaire usuel de psychologie, Bordas, Paris, p 187.

[6] - LUTTE (G), 1988, Libérer l'adolescence. Introduction à la psychologie des adolescents et des jeunes, Margada, Bruxelles, p187.

7 - LEBLANC (M), 1985, La délinquance à l'adolescence, In : SZABO (D) et LEBLANC (M) (sous la dir de), La criminologie empirique au Québec [en ligne], Les Presses de l'Université de Montréal, Canada, http://classiques.uqac.ca/contemporains/leblanc_marc/delinquance_a_adolescence/delinquance_a_adolescence.pdf p14.

8 - COSLIN (P. G), 1996, Les adolescents devant les déviances, PUF, Paris, p61.

9 - Id, p61 et LEBLANC (M), 1985, op.cit, p15.

10 - BELLEMARE, (L). L'approche systémique : une histoire de familles [en ligne] : Revue Québécoise de psychologie. 2000. Vol. 21, n° 1, http://www.rqpsy.qc.ca/ARTICLE/V21/21_1_075.pdf, pp. 75-91.

11 - BORN (M), 2006, Psychologie de la délinquance, 2è éd, De Boeck, Bruxelles. p94.

12 - Id, pp. 94-95.

13 - Id, pp. 95-96.

14 - Id, p 101.

15 - Id. p 169.

16 – لابلانش (ج) وَ بونتاليس (ج.ب)، 1985، مرجع سبق ذكره، صص. 111– 113.

17 - نفسه، ص 198.

18 - BORN (M), 2006, op.cit. pp. 174-176.

20 - WINNICOTT (D. W), 2006, Conversation ordinaries, Trad. fr. BOST (B), Gallimard, France,pp. 130-144.

21 - GROSSMANN, (K). et GROSSMANN, (K. E). L'impact de l'attachement du jeune enfant à la mère et du père sur le développement psychosocial des enfants jusqu'au début de l'âge adulte. In : Encyclopédie sur le développement des jeunes d'enfants [en ligne]. Allemane : centre d'excellence pour le développement des jeunes enfants, 2009. http://www.child-encyclopedia.com/pages/PDF/attachement.pdf.

22 - BORN (M), 2006, op.cit. p 142